محمد الأحمد الرشيد . . الإنسان الذي عرفته

د. عبد الواحد بن خالد الحميد

بعد حرب الخليج الثانية برزت مواقف غير متفهمة لظروف تلك الحرب من بعض الأحزاب والجمعيات ووسائل الإعلام في العديد من الدول، التي كانت حكوماتها قدمت دعماً سياسياً وعسكرياً لدول مجلس التعاون الخليجي، فرأت المملكة ضرورة توضيح الصورة لشرائح المجتمع في تلك البلدان. على إثر ذلك بادرت المملكة إلى إرسال بعض الكُتَّاب وأساتذة الجامعات والمثقفين لزيارة هذه الدول بهدف شرح موقف المملكة ودول المجلس من تلك الأحداث، التي عصفت بالمنطقة وبالعالم بأسره.

وقد ذهبت إلى أستراليا ونيوزلندا مع زميلين آخرين هما الدكتور محمد بن أحمد الرشيد والأستاذ إياد أمين مدني، وتجولنا في مدن عديدة في البلدين لمدة قاربت شهراً كاملاً، ثم عدنا إلى المملكة نحمل ذكريات تلك الرحلة المثيرة التي قابلنا خلالها وزراء في الحكومتين وأعضاء في البرلمان وصحفيين وكتاباً وأساتذة جامعات وطلبة وأعضاء في الجاليات الإسلامية والعربية هناك.

لم أكن قد التقيت بالدكتور محمد الرشيد قبل تلك الرحلة، ولكني كنت أقرأ ما كان يكتب في بعض الصحف المحلية، كما كنت أقرأ وأسمع عن نشاطه وأعماله في حقل التربية والتعليم.

قابلته في مطار الملك خالد بالرياض قبيل إقلاع الطائرة التي كانت محطتها الأولى باكستان، وكنت قد جئت للتو من الظهران حيث أعمل وأعيش، وقبل أن ندخل الطائرة وجدنا أنفسنا أمام مشكلة كبيرة، إذ علمنا من موظف الخطوط الجوية أنه لابد من

نائب وزير العمل سابقاً المستشار بوزارة التربية والتعليم قبل ذلك.

الحصـول على تأشيـرة لدخول باكستان، نظـراً لما جرى وقتها من تغييـر في إجراءات الدخول إلى تلك الدولة لمن سيمكث هناك.. أعطانا موظف الخطوط خيار تغيير الحجز أو تأجيـل السفر إلى أن يتم ترتيب الأمور مـع السفارة الباكستانية، وقال: إنه لن يتحمل مسؤولية السماح لنا بالذهاب قبل الحصول على تأشيرة!

كان الموقف سيكون عابراً، أو ربما هو الآن بعد تلك السنوات قد أصبح عابراً بالفعل، لكنه ظل محفوراً في الذاكرة لسبب واحد، وهو أنني في تلك اللحظة اكتشفت سمة أساسية فـي شخصيـة هذا الزميـل الجديد، الذي لم تكـن تربطني به سابق معرفـة، وهي سمة كمـا اكتشفت فيما بعد تفسـر الكثير من جوانب سلوك ومواقف هـذا الرجل.. لقد لفتت انتباهي الطريقة التي تعامل من خلالها الدكتور الرشيد مع الموقف.. ففي البداية حاول أن يقنـع الموظـف بأن الأمر لا يتطلـب تأشيرة هكذا بكل بساطـة! وأن بوسعنا أن نسافر علـى مسؤوليتنا الشخصية! وبطبعي المتحفظ لم أكن أميل إلى هذا الرأي، لكن الدكتور محمـد كان مستغرقاً في جدل صاخب مع الموظف، الـذي لم يقتنع هو الآخر بشيء مما قالـه الدكتور محمد.. وعندمـا استعصى الأمر، وتصـورت أن الرحلة سوف تتأجل طلب الدكتـور محمد من الموظف أن يستخدم الهاتف (لم يكن يومها الهاتف الجوال قد دخل الخدمـة!)، فاتصـل بالسفارة الباكستانية بالرياض، وظل يتحـدث في الهاتف مع بعض الموظفين فيها إلى أن جاء الفرج، فلحقنا بالرحلة على عجل وتم تدبير الأمر!

ارتحـت كثيراً للنهاية التي وصلت إليها الأمـور؛ إذ لم أكن أرغب في العودة إلى بيتي في الظهران بعد أن ودعت الأهل والزملاء في الجامعة ثم أرجع مرة أخرى إلى الرياض بعـد إنهاء إجراءات التأشيـرة، لكنني وقفت متعجباً أمام جسارة الدكتور محمد مع أنني علـى أي حال لم أكن متأكداً أنني كنت سأسافر معه (على مسؤليتنا الشخصية)، حسب تعبيره، لو لم تنفرج الأمور!

في مواقف لاحقة في أثناء الرحلة، وبعدها عندما أصبح الدكتور محمد وزيراً للمعارف سابقـاً (التربية والتعليم حاليـاً)، كنت دائماً أتذكر ذلك الموقف فـي مطار الملك خالد، فقد اكتشفت أن هذه الجرأة ربما تكون هي مفتاح شخصية الدكتور محمد الرشيد.

أمضينـا رحلة ممتعـة ومفيدة صحبنا فيهـا الأخ الفاضل والسفيـر الناجح الأستاذ عبـد الرحمن العوهلي، وتجول معنا في ربوع أستراليا ونيوزلندا شارحاً لنا خفايا وخبايا المجتمـع الأسترالي والنيوزلندي، وعندما عدنـا إلى المملكة وصلتني رسالة قصيرة من الدكتـور محمـد الرشيد، عبر فيها عـن مشاعر إنسانيـة نبيلة، وختمها بأنـه يريد لهذه العلاقة أن تستمر، وقد لخصت تلك الرسالة خصلتين أساسيتين تميزان أيضاً شخصية الدكتـور محمد هما: الحميمية، والتواصل، وقد تأكدت لـدي هاتان الصفتان أكثر وأكثر بمضي السنين.

بعـد أن عدنـا إلى المملكة كانت لنا لقاءات عديدة، وسافرنا معاً إلى عدة مناطق في المملكة، وأصبحنا أعضاء في فريق استشاري لدى إحدى الجهات المهمة، نلتقي أسبوعياً فـي الرياض، وأحضر له خصيصاً من الظهران.. ثم بعد ذلك تم تعيين الدكتور الرشيد وزيـراً للمعارف، وبعدها بمدة قصيرة طلب منـي أن أعمل مستشاراً متفرغاً له، فوافقت بحماس رغم أن ذلك كان يتطلـب الانتقال من الظهران إلى الرياض، وقد كان السبب الرئيس لموافقتـي هو حماس الدكتـور محمد وطموحاتـه الكبيرة لإصـلاح التعليم في المملكة، فاعتبرت أن المشاركة في ذلك المشروع الوطني فرصة تاريخية، فلم أتردد ولم أطلـب أي مقابـل مادي، فقد كان راتبي هو ما أحصل عليه فعلاً كعضو في هيئة التدريس بجامعـة الملك فهد للبترول والمعادن، وكنت فـوق ذلك أتحمل التذاكر الأسبوعية ذهاباً وإيابـاً من وإلـى الرياض والظهران بالإضافـة إلى تكاليف الشقـة المستأجرة بالرياض بعيداً عن أسرتي التي كانت مقيمة في الظهران، وكنت سعيداً كل السعادة بهذا كله برغم ما فيه من أعباء.

عملت مع الدكتور الرشيد لمدة عام قبل أن يتم تعييني عضواً في مجلس الشورى، وقد استمتعـت بعملي عاماً كاملاً تعلمت خلالـه الكثير من الدروس، وتعرفت على شخصيات تربوية كثيرة داخل وخارج الوزارة.

لـن أفي تلك التجربة حقها من خلال هذه السطور.. فعلى الرغم من أن المدة كانت قصيرة نسبياً ولم تتجاوز العام الواحد إلا أنني كنت أتابع عن قرب نشاط وزارة المعارف

وكذلك واصلت نشاطي في بعض اللجان مع الزملاء في الوزارة حتى بعد انتهاء عملي الاستشاري، وإذا كان مجال الحديث الآن، وفي سياق هذا الكتاب، هو ذكريات العمل والصداقة مع الدكتور محمد، فإنني سوف أركز على بعض هذه الجوانب بقدر ما يسمح الوقت وتتيح المساحة.

بدأ الدكتور محمد الرشيد عهده، كوزير، بتشخيص علمي للمشكلات والعقبات التي يعاني منها التعليم العام بالمملكة، فتم توزيع استبانات تحتوي على أسئلة شاملة عن جميع جوانب التعليم.. وقد شاركت في الإجابة عن تلك الأسئلة شرائح مختلفة من المجتمع، وكان الهدف هو تحديد الأولويات ثم رسم خطة عمل للوزارة، وبذلك تكونت لدى الوزارة صورة واضحة عن أهم المشكلات التي يتعين عليها معالجتها، وفي تقديري أن هذه الخطوة كانت بداية جيدة، كما أنها أحدثت انطباعاً جيداً لدى الناس، فقد اعتبروها مؤشراً على جدية الوزارة في تلمس ما يعاني منه الميدان وعدم الاكتفاء بالدراسات التنظيرية، التي يجريها من نطلق عليهم (الخبراء)، وهم أناس يقبع الكثير منهم في مكاتب مغلقة وأبراج عاجية، كما يُقال.

وقد انبثقت من تلك الدراسة لجان وفرق عمل بناءً على النتائج التي توصلت إليها الدراسة، وانطلقت الوزارة في مبادرات متلاحقة في شتى المجالات لتطوير التعليم العام.

إن أوضح ما أحمله الآن من ذكريات عن تلك المدة التي تفرغت فيها للعمل الاستشاري في وزارة المعارف هو ذلك الكم الهائل والمتلاحق، وأكاد أقول المرهق، من المبادرات التي لا تنقطع لتطوير التعليم العام.. وهي مبادرات كان يُطلقها ويشرف عليها الدكتور الرشيد بنفسه بلا كلل ولا ملل! وكنت ولا أزال أعتقد أن هذه المبادرات أكبر وأكثر مما كان الواقع الاجتماعي وإمكانات الميدان التربوي تستطيع استيعابه في ذلك المدى الزمني المحدود، لكن الدكتور الرشيد كان يعد أن الوزارة في سباق مع الزمن، وأن الأمة تخسر أهم ثرواتها وهم البشر حين تتأخر يوماً واحداً في تطوير التعليم.

كان الدكتـور محمد الرشيد يسابق الزمن، وكانت العقبات الاجتماعية والمادية التي تقـف فـي طريقه هائلة، لكنه لـم يكن على استعـداد لمهادنتها، ومن أجـل ذلك تعرض للكثيـر من سوء الفهـم، ودفع ثمناً فادحـاً خصوصاً من بعض الأشخاص والفئات التي تصـورت أنـه يحمل أجندة تغريبية، وكنت حين أقرأ بعض ما يكتب عنه في بعض مواقع الإنترنـت أو حتى ما يقال من على بعض منابر المساجـد أو في بعض المجالس الخاصة أتعجـب، لأن الشخص الذي يتحدثون عنه ليس هو محمـد الرشيد الذي أعرفه.. لكنني أدرك الآن أن (مقاومة التغيير) هي طبيعة البشر، وأن ما كان يحدث هو مقاومة للتغيير الذي كان يقوده الدكتور محمد الرشيد بكل جسارة برغم أن بعض أصدقائه ومستشاريه كانـوا ينصحونه بالتروي، وكنت واحـداً من هؤلاء الذين رؤوا أن وتيـرة التغيير يجب أن تهـدأ في بعض الأحيان، وذلك لاستيعـاب الضجيج وتوضيح الأمـور، وخصوصاً لأولئك الذين لم تكن تُحركهم مواقف مسبقة أو نوايا غير حسنة.

إنني أتحدث، صادقاً، عن محمد الرشيد بما أعرف، وما أعرفه هو أن الرجل يتحلى بعاطفـة دينيـة جياشة، وإننـي لأستغرب أن يجد المـرء نفسه مضطـراً للكتابة عن هذا الجانـب الشخصي جداً لمحمد الرشيد بالذات، فهو غنـي عن هذا، لكن الحملات التي شنت على الرجل واتهمته في دينه من قبل أشخاص لا يعرفونه في كثير من الأحيان وفي سياقـات انتقائية مقصودة أحيانـاً قد انطوت على ظلم فادح، يجعـل كل صاحب ضمير حـي ممن عرفوه يُسهم في توضيح الحقيقة كمـا عرفها، فهو محاسب أمام رب العالمين بمـا يصمت عنه أو بمـا يقوله.. وقد سافرت مع الرجل في رحـلات عديدة داخل وخارج المملكـة فوجدتـه محافظاً على الصلاة، ولم أشعر في أي وقت من الأوقات بأن له موقفاً ضـد المتدينيـن، فضلاً عن أن يكون له موقف ضد الدين، كما أشاع البعض عنه ممن لم يعرفوه ولم يختلطوا معه، ومن الغريب أن يقال عنه ما قيل، بينما العديد من أصدقائه بل ومن قيادات الوزارة القريبين منه هم من المعروفين بالتزامهم الديني!

كان محمد الرشيد يعشق عمله، وكان يناقش جميع التفاصيل، وقد كان يعقد لقاءات مطولـة يومية وأسبوعيـة وشهرية، يشترك فيهـا وكلاء وقياديو الـوزارة ومديرو إدارات

التعليم من جميع مناطق المملكة وضيوف وخبراء من خارج الوزارة، وكانت هذه اللقاءات تمتد لساعات طويلة وتكون منهكة، لكن محمد الرشيد لم يكن يبدو عليه أي سأم أو تعب، بل عكس ذلك من الحماس والنشاط، فهو ببساطة، محب عظيم للتربية وقضاياها ولا يمل من العمل في هذا الميدان.

لقد أتيح لي أن أعايش عدداً من المشروعات التي أطلقها الدكتور محمد الرشيد، ومن أهمها: مشروع التقويم الشامل للتعليم، ورعاية الموهوبين، وتحديث المناهج، وإدخال مادة التربية الوطنية ضمن المقررات الدراسية، وإعادة إصدار مجلة المعرفة، وتطوير هيكل الوزارة بما في ذلك إيجاد إدارة لاقتصاديات التعليم، وغير ذلك من المبادرات العديدة، وكانت هذه المبادرات المتتابعة لا تترك لزملائه في الوزارة مساحة لالتقاط الأنفاس.

لقد كان محمد الرشيد يوزع جهده على كل هذه الجوانب، غير أن جانباً أساسياً كان يمثل بالنسبة له الهاجس الأول، ألا وهو تطوير المعلم، فقد كان يؤمن بأن المعلم هو الركيزة الأساسية في العملية التعليمية والتربوية، وأن كل الأمور الأخرى برغم أهميتها ثانوية لأن المعلم الكفء يمكن أن يعوض النقص في كل الجوانب الأخرى، وقد شهدت العديد من الاجتماعات التي كانت مخصصة لمناقشة قضايا محددة غير قضية تطوير المعلمين لكن محمد الرشيد سرعان ما كان يغير النقاش إلى موضوع المعلمين وتطويرهم.

إنني أعتقد أن الدكتور محمد الرشيد استطاع أن يحقق إنجازات كثيرة للتربية والتعليم في بلادنا.. بعض هذه الإنجازات واضحة، والبعض الآخر سيتضح أثره بمرور الوقت لأن طبيعة ذلك الأثر تراكمية وتحتاج لأجيال عديدة كي تبرز.

لقد رصد الدكتور محمد الرشيد تجربته الإدارية بشكل موثق في الكتاب الذي أصدره تحت عنوان: (مسيرتي مع الحياة)، ويمكن لكل من يريد معرفة تفاصيل هذه التجربة أن يعود إلى ذلك الكتاب، ولهذا فإنني لا أقدم رصداً لهذه التجربة في هذه العجالة التي أكتبها كشخص عايش بعض جوانب تلك التجربة التي يتفق ويختلف حولها

الكثير من الناس من ذوي النوايا الحسنة أو غير الحسنة.. لكن المؤكد أن محمد الرشيد قـد ترك أثراً إيجابياً كبيراً في الميدان التربـوي والتعليمي في المملكة، وأن هذا الأثر لا يمكـن تقويمه بشكل عادل إلا بعد مساحة زمنيـة كافية تكون المؤثرات الوقتية والجوانب الشخصية قد زالت خلالها.

استطاع محمد الرشيد، في تقديري، أن يجعل من التعليم (قضية عامة)، فقد انفتح على الإعلام وفتـح أبواب الوزارة على مصراعيها أمام الإعلاميين.. لم يكتف بذلك، بل استأنف إصدار مجلة المعرفة التي ما تركت جانباً من جوانب القصور في أداء مؤسسات التعليـم إلا وتصدت له بالنقد، وحتى الوزير نفسه كثيراً ما تعرض للنقد من المجلة، بما في ذلك المقابلة الشهيرة التي أجرتها معه واتهمته في أدائه وفي منهجيته وفي قراراته!

وإذا كان محمـد الرشيـد قد ارتكب العديـد من الأخطاء كأي بشـر يجتهد فيصيب ويخطـيء، فإن أحدها، برأيـي، هو الإسراف في الانفتاح على الإعـلام.. أقول ذلك وأنا أحـد المحسوبيـن أحياناً على الإعلام، وممـن عملوا في الصحافة اليوميـة والأسبوعية والشهريـة سنوات عديدة وممن ينتمـون إلى مدرسة تؤمن بـأن إيجابيات حرية الإعلام أكثر من سلبياتها أيا كانت هذه السلبيات، لكن الإعلام بحق سلاح ذوحدين، وهو سلاح قاتـل عندما تنزلـق الممارسة إلى متاهات ينفذ منها من لا يريـد الإصلاح المتجرد من الهوى، ومن يريد أن يصطاد في الماء العكر، ويصفي الحسابات الشخصية، سواء كانت حقيقية أو متوهمة.

أعود بعد ذلك إلى سمتين من السمات المميزة لشخصية محمد الرشيد فقد أشرت إلى الحميمية والتواصل كجوانب إنسانية مميزة كل التميز في شخصية الرجل.. فعندما يتحـدث إليك محمد الرشيد بتلك الحميمية المتدفقـة، تشعر إنك أقرب أصدقائه إليه، بـل تتوهم أنك ربما تكون صديقه الحقيقي الوحيد برغم أنك تعرف صداقاته العريضة، ليس في هذه المدينة فقط وليس في المملكة وحدها، وإنما عبر امتداد الوطن العربي من المحيط إلى الخليج وحتى خارجه! هو لا يفتعل ذلك، ولا يتعمد أن يوجد هذه الصورة في

ذهنـك، وإنما ينهمر بتلقائية تقترب مما نراه في أريافنا البعيدة، التي لم تفسدها مادية هـذا الزمن.. فتراه يسألك عن أمـورك الصغيرة والكبيرة، ويتذكر كل الأشياء والأسماء والأماكـن التي تمثل قيمة لك، ولا يتردد في أن يقـدم لك المشورة والتشجيع والمساعدة حتى دون أن تطلبها منه، وهو فوق ذلك يتواصل مع الناس ويبادر بالسؤال عنهم ويزورهم في مناسباتهم السعيدة والحزينة، ويفتح أبواب بيته لاستقبال من يعرف ومن لا يعرف.

مـن أجـل ذلك استمـرت علاقة محمد الرشيد مـع الناس بنفس الوتيـرة، حتى بعد أن زال هيلمـان المنصب وبهرج الكرسي، فلـم يبتعد عنه الناس كما يفعلون مع أصحاب المناصـب السابقة، فالناس الذين أحبوه قبل المنصب استمروا في محبتهم له في أثناء المنصب وبعـد المنصب، وهم يتقاطرون على (سبتيته) التـي تلتئم بعد صلاة المغرب مـن كل سبـت، حيث ترى ألواناً مـن طيف المجتمع بكل تكويناتـه وفئاته ومن كل مناطق المملكة.

أعتـرف أن هـذه شهادة محـب، لكنني موقـن أنها ليسـت شهـادة مجروحة بدفء المحبة.. فبكل الصدق أكتب وأنا أعرف أننا بشر أبعد ما نكون عن الكمال.